الدرس الرابع

باب تفسير التوحيد وشهادة ألا إله إلا الله

قال المؤلف رحمه الله : وقول الله تعالى : أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا. [الإسراء:٥٧]

الشرح : قوله أولئك : قيل هم الملائكة وقيل مريم وعيسى وعزير ، ولا تعارض بين هذه الأقوال . وقوله : يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، يؤكد عموم المراد بأولئك .

قوله تعالى : يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب : أي أنهم يحتاجون إلى الوسيلة التي تقربهم وتوصلهم إلى الله تعالى رجاء رحمته سبحانه وتعالى ، ولذا عقبها بقوله سبحانه : ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

قال المؤلف رحمه الله : وقول الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الزخرف ٢٦ – ٢٨]

الشرح :في الآية جمع إبراهيم صلى عليه وسلم بين النفي والإثبات بلفظ العبادة إشارة إلى عدة أمور :

١- أن حقيقة التوحيد هي الجمع بين النفي والإثبات فتبرأ مما يعبدون ثم وحد الله تعالى بعبادته وحده سبحانه لا شريك له

٢- أنه بدأ بالبراءة من عبادة سوى الله تعالى ، لأن التوحيد لا يتحقق إلا بعد تجريد القلب من عوالق الشرك

٣- أنه عبر بالبراءة وهو لفظ يشعر بالتجرد التام من الشرك

٤- في قوله : مما تعبدون : أن العبادة مرتبطة بالخالق فهو المستحق وحده سبحانه وتعالى ، فمن خلق فهو أحق بأن يعبد

٥- أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام عبر بالإثبات بلفظ الفطرة والهداية ، فإن الله تعالى الذي فطر الإنسان على التوحيد بيده الهداية وهو المستحق للعبادة

قال المؤلف رحمه الله : وقوله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ [البقرة ١٦٥]

الشرح : الآية دليل على أن محبة غير الله تعالى بدرجة مساوية لله تعالى هي من حقيقة اتخاذ الند لله سبحانه ، وأشد منه من يقدم محبة غير الله على محبته سبحانه ، وهو ليس مقتصراً على المحبة القلبية بل يشمل كل أنواع العبادة ، ويقع في هذا الزمن كثير من ذلك كمن يستغيث بغير الله تعالى أو يعظم غير الله تعالى تعظيم عبادة ، كمن يستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم أو يدعوه ، أو يمدحه بما لا يليق إلا بالله عز وجل

ومن العجب أن الحال وصل ببعض هؤلاء أنه ربما يحلف بالله كاذباً لكنه لا يحلف بالنبي إلا صادقاً ، والمؤمنون بالله تعالى أشد حباً له من حب أولئك لأندادهم، ويمكن تقسيم المحبة إلى ثلاثة أقسام :

١- المحبة لله تعالى ، وهذا النوع هو أوثق عرى الإيمان وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا ابن مسعود ، أي عرى الإيمان أوثق ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « أوثق عرى الإسلام الولاية في الله ، والحب فيه ، والبغض . رواه الطبراني في الأوسط وله شاهدان عن البراء وابن عباس رضي الله عنهم

٢- المحبة الطبيعية : كمحبة الوالدين والزوجة وقد ثبت عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت أي الناس أحب إليك قال عائشة فقلت من الرجال فقال أبوها قلت ثم من قال ثم عمر بن الخطاب فعد رجالا . متفق عليه

٣- المحبة مع الله تعالى وهذه تنافي محبة الله تعالى وهي المراد في الآية

قال المؤلف رحمه الله : وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله عز وجل))

الشرح : حرمة المال والدم معلقة بأمرين :

أولهما : قول لا إله إلا الله

الثاني : الكفر بما يعبد من دون الله تعالى

وهذا من حيث الظاهر وأما من أخل بهما باطناً فحسابه على الله تعالى الذي يعلم سرائر النفوس وما تخفيه الضمائر

قال المؤلف رحمه الله وشرح هذه الترجمة : ما بعدها من الأبواب

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء بعد وقوعه أو دفع البلاء قبل وقوعه ، بمعنى أن الشرك يشمل ما إذا كان لبس الحلقة والخيط قبل وقوع البلاء أو أثناءه ما دام أن لابسها يعتقد أنها تدفع البلاء أو أنها سبب لذلك ، مع الاختلاف بنوع الشرك حسب نية اللابس

قال المؤلف رحمه الله : وقول الله تعالى : قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكّلُ الْمُتَوَكّلُونَ (الزمر - ٣٨)

الشرح : النفع والضر بيد الله تعالى والشفاء من عنده سبحانه : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) والمستقر في أذهان أهل الجاهلية المشركين أن الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولذا فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أراد أن يثبت لقومه عدم استحقاق الأصنام للعبادة

لأنها لا تملك جلب النفع ودفع الضر كما في قوله تعالى : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) الشعراء

فرد عليهم بأنها ما دامت لا تستطيع التحكم بالنفع والضر فلا تستحق أن يصرف لها العبادة كما في قوله تعالى : قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) .

قال المؤلف رحمه الله : عن عمران بن الحصين أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا في يده حلقة من صفر فقال ما هذه ؟ قال : من الواهنة فقال : انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً . رواه أحمد بسند لا بأس به

الشرح : هذا الحديث ضعيف ولا يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع أن المعنى صحيح

وقوله : الواهنة : قيل إنه عرق في اليد وقيل في العضد وهو مرض يصيبهما

حكم لبس الحلقة : لبس الحلقة في كل الأحوال محرم وهو شرك ، وقد يكون شركاً أصغر إذا اعتقد أنها سبب للشفاء ، ويكون لبسها شركاً أكبر إذا اعتقد أنها تشفي بذاتها . والشافي هو الله وحده سبحانه وتعالى : كما قال سبحانه : وإذا مرضت فهو يشفين . ولا يجوز أن يتخذ شيء من الأسباب إلا ما ثبت بالنص أنه سبب شرعي ، فالتداوي بالكي ثبت بالنص فيجوز التداوي به ، وما ثبت بالتجربة أو بالاختصاص أنه سبب فيجوز التداوي به بشرط ألا يعتقد أنه يشفي بذاته وقد ثبت عن أسامة بن شريك قال :قالت الأعراب : يا رسول الله ألا نتداوى قال نعم يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو قال دواء إلا داء واحدا قالوا يا رسول الله وما هو قال الهرم . رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد

قال المؤلف رحمه الله : وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً : من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له . وفي رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك .

الشرح : هذا الحديث فيه ضعف ، وتعليق التميمة محرم بغير هذا الحديث وهي شرك أصغر إذا اعتقد أنها سبب فإن تعلق بها واعتقد أنها تنفع بذاتها فهو شرك أكبر . والتميمة تفصيلها في الباب الذي بعده

الودعة : قوقعة تخرج من البحر يتقى بها من العين ، ولاشك أن من علقها واقع في أحد نوعي الشرك على التفصيل السابق فيمن علق تميمة

قال المؤلف رحمه الله : ولابن أبي حاتم عن حذيفة : أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه ، وتلا قوله : (وما يؤمن أكثركم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف ١٠٦]

الشرح : هذه الرواية صححها بعض أهل العلم وهي صحيحة بتعدد طرقها ، وهي امتداد لما سبق ذكر حكمه من أن تعليق الخيط محرم واقل أحواله أن يكون شركاً أصغر ، ولذا تلا حذيفة رضي الله عنه هذه الآية

ويبقى السؤال فيما جد من وسائل علاجية تشبه الخيوط يعالج بها من أمراض الروماتيزم وغيره ، فهل حكمها حكم الحلقة والخيط والتمائم ؟ أم أن خصائصها العلاجية والتي أثبتها الطب تجعلها في دائرة المباح ما دام أن أهل الاختصاص أثبتوا أنها سبب للشفاء بإذن الله تعالى ؟

والذي يبدو لي والله أعلم أن ما كان علاجياً وأثبت الطب بما لا يدع مجالاً للشك أنها دواء لمرض بعينه فلا بأس بلبسها ، وذلك لأمور :

١- أنها سبب طبيعي للعلاج أثبت الطب ذلك عن طريق أهل الاختصاص

٢- أنها ليست ذريعة للشرك إذ إن الذي يلبسها يعتقد أنها سبب طبعي وهو اعتقاد صحيح

٣- أن الأسباب ليست متوقفة على ما ورد بخصوصه النص ، بل إن الشارع الحكيم أمر بالتداوي ، وهو ما يتطلب البحث والاستقصاء عن العلاجات النافعة لكل دواء ، وهي ليست مقتصرة على تناول العلاج عن طريق الفم أو الأنف أو الوريد أو غيره ، بل ذلك مرتبط بتطور الطب ووسائله

ويستثنى من ذلك ما كان لطرد الحسد والعين والجن مما هو منتشر في بلاد المسلمين مما يعلق على الصدور أو في السيارات أو يوضع في البيوت يعتقد أنها تطرد الأرواح الشريرة أو تقي من العين والحسد ، فهذه كلها أقل أحوالها أنها شرك أصغر

معهد العلوم الشرعية العالمي